مُشْكل الريادة في مدرسة البصرة النحوية

أ.م.د. غادة غازي عبد المجيد / جامعة ديالى / كلية التربية للعلوم الانسانية

مدخل:

والصلاة والسلام على خاتم الانبياء والمرسلين وال بيته واصحابه اجمعين وبعد ..

فإن البحث في المدارس النحوية قد شغل حيزا واسعا في الفكر النحوي الحديث، ولم يأل الباحثون جهدا في الوقوف على تاريخ هذه المدارس والتأصيل لها وتثبيت أصولها التي تميز واحدة من الأخرى، فقد اجتهد الكثير من علمائنا في تلمّس الأصول أو المعايير التي يجب أن تتوافر في فكر نحوي ما لكي يصحّ أن نطلق عليه مصطلح (مدرسة) أو (مذهب) أو غيرهما من المصطلحات التي نقرؤها في كتب المدارس النحوية وأصبحنا نقرأ أيضا خلافات كانت حادة . أحيانا . بين الدارسين في حقيقة وجود المدارس النحوية ،وتراوح هذه الفكرة بين الحقيقة والوهم ، فمنهم من أقر بوجود مدرستي البصرة والكوفة فقط ، ومنهم من توسّع في ذلك فجعل المدارس أكثر من اثنتين ،فأضاف مدرسة بغداد والشام والأندلس ، ومنهم من اكتفى بالقول بوجود مدرسة نحوية واحدة فحسب وهي المدرسة البصرية.ومهما يكن من أمر فأنا في هذا الموضع لن أتكلم على إشكالية التأصيل للمدارس النحوية،ولكن سأسلط الضوء على إشكالية أخرى ربما باتت من البديهيات في نظر معظم الباحثين إن لم يكن جميعهم ، وقدلايراها بعضهم إشكالا ، ولكن إمعان النظر في كتب المدارس النحوية وما وضعته من سمات للنحو البصري تجعلنا نتساءل : مَنْ من النحاة يمكن أن يعد رائدا للمدرسة البصرية؟، والسؤال بصيغة (متى) ضرورة في هذا الشأن ومؤدى ذلك : متى صيغت إرهاصات ما سُمّي بمذهب البصرة أو البصريين ؟، وهل يُعدّ كتاب سيبويه امتدادا أصيلا أو أصليا لمدرسة البصرة كما مثلتها كتب المبرّد وأبي بكر بن السراج وغيرهم ؟ .

وقبل الخوض في غمار الإجابة عن السؤالات المتقدمة لابدّ من التنبيه على أننا نقصد بالمدرسة . هنا . الفكر النحوي على مستويي التنظير والتطبيق، أو على مستويي منهجي البحث والتأليف.

وعليه ينبغي أن نتوقف قليلا عند مفهوم لفظة (مدرسة) في نظر الباحثين ، ومن ثَمّ نحاول تطبيق هذا المفهوم على مَنْ عُدّ رائدا لمدرسة البصرة النحوية ، لنستكشف بذلك حقيقة. أظنها . على قدر كبير من الأهمية.

ولا يفوت البحث أن يعرض كذلك للمعايير المنهجية والفكرية التي استخلصها الباحثون من كتب نحاة البصرة ، ليحكموا ببصرية هذا العالم دون ذاك .

فالبحث سيأخذ على عاتقه مهمة بيان أن ولادة المدرسة البصرية بعدّها فكرا نحويا عُرف بما عُرف من سمات منهجية رسمها الباحثون لهذا الفكر إنما جاءت متأخرة على زمن تأليف كتاب سيبويه ،وأن هذه

السمات لا نجد لها صدى واضحا ملموسا في المنهجية التي اعتمدها سيبويه في كتابه ،وإن كان كتابه هو المنطلق الأول للنحو العربي عموما وللنحو البصري خصوصا .

وهي محاولة لاستكشاف الجديد وبث قناعات استشعرتها وأنا اقرأ في كتب المدارس النحوية ،لألحظ أن مساحة كانت حاضرة بين سيبويه وملامح الفكر البصري التي قرأتها في هذه الكتب ، إذ إن سيبويه بفكره النحوي كان بعيدا عنها .

وغايتنا في ذلك خدمة لغتنا العزيزة و إضافة ماهو مفيد لدارسي العربية ومحبيها ، وما التوفيق إلا بالتوكل على الباري عزّ وجل .

أولا . مفهوم لفظة (مدرسة) او (مذهب) :

لم يوفّر الباحثون جهدا في تتبّع مصطلح (مدرسة) أو غيره من المسميات التي وجدوها تلائم فكرة اجتماع النحويين على منهج موحّد أو خط فكري متشابه ، وقرأنا الكثير من التعريفات ، ولسنا هنا بصدد عرض هذه التعريفات أو بيان أيّ المصطلحات أقرب الى التعبيرعن فكرة مدرسة أو مذهب ، وإنما سيعرض البحث لبعضٍ منها ، والغاية من ذلك هو معرفة الى إي مدى يصحّ أن نعدّ هذا النحوي أو ذاك رائدا لهذه المدرسة أو مؤسسا لها في ضوء مفاهيم هذه التعريفات ، ونذكر منها ماقاله د. أحمد مكي الأنصاري في تعريف (المدرسة) : ((اتجاه له خصائص مميزة ينادي بها فرد أو جماعة من الناس ثم يعتنقها آخرون))(1).

وعرّفها د.أحمد مختار عمر بقوله : ((وجود جماعة من النحاة بينهم رباط من وحدة الفكر والمنهج في دراسة النحو ، ولابدّ أن يكون هناك الرائد الذي يرسم الخطة ويحدد المنهج ، والتابعون أو المريدون الذين يقتفون خطاه ، ويتبنون منهجه ويعملون على تطويره والدفاع عنه))(2) ، واشترط لها استمرارية المنهج والبقاء وتوضّح أثره فيمن يتلو مؤسس المدرسة أو رائدها(3).

وذهب د. عبد العال سالم مكرم إلى أن المدرسة لاتكون مدرسة ((إلا اذا توحدت فيها الأهداف وتناسقت الأصول ، وتميزت مناهجها بطابع خاص))(4).

وغير ذلك العديد من التعريفات التي تبنّاها الباحثون في طريقهم الى التنظير لمفهوم فكرة المدرسة النحوية ، وبالنظر الى ماتقدّم نجد أن هذه التعريفات اتفقت . على اختلاف عباراتها . في أن ملامح المدرسية تتلخص في الآتي :

1. التميّز بمنهج واحد أو سمات منهجية موحّدة أو متشابهة على مستويي التنظير والتطبيق أو الالتزام بخط فكري موحّد.

2. وجود رائد يؤسس المدرسة ويقود خطها الفكري ويُعدّ المبتكر لها .
3. امتداد المنهج فيمن يتلو هذا الرائد أو المؤسس وتوضّح أثره في آثارهم العلمية .

وسنحاول تلمّس هذه الخصائص أو الملامح في فكر مَنْ عُدّ رائدا لمدرسة البصرة النحوية على ماوجدناه في كتب المدارس النحوية.

إن الناظر في كتب المدارس النحوية يجد أن معظم الباحثين . إن لم يكن جميعهم . يُقرن بين نشأة النحو العربي ونشأة المدرسة البصرية ؛ لذلك يبدأون كلامهم على نشأة النحو أولا ثم نشأة المدرسة البصرية ، وهذا أمر مبرَر منهجيا ؛ لأن نشأة النحو العربي كانت بصرية . كما هو معروف . ومنها انطلقت بواكير الدراسات اللغوية عموما ، أما المدرسة البصرية ،فلا تكاد ملامحها تظهر للوجود واضحة حتى عهد سيبويه وكتابه ، إلا أن بعض الباحثين أشار إلى أن من النحاة الأوائل مَنْ عدّه استاذا لهذه المدرسة ، فالدكتور شوقي ضيف يقول : ((ونبدأ بأبي اسحاق الذي يُعدّ بحق استاذ المدرسة البصرية ...))(5)، وينقل بعد ذلك بعض الروايات عنه في مؤاخذاته لبعض الشعراء من أمثال الفرزدق ، ثم يشير إلى أنه لم يصل إلينا كتاب نحوي عنه ، وإنما يكتفي بتلك الملاحظ أو المناظرات التي حدثت بينه وبين الشعراء(6) .

ونص الدكتور شوقي ضيف يُشعر بأن مدرسة البصرة النحوية تبدأ بأبي اسحاق الحضرمي ، ولكن كيف يتفق ذلك والنحو لم يكتمل بعد ؟وهل يصحّ القول بوجود مدرسة بصرية نحوية والنحو العربي مازال في طور النشأة ؟،وهذا أمر ذكره الدكتور شوقي ضيف نفسه ، إذ قال : ((وواضح من كل ما قدّمناه أن الخليل يُعدّ بحق واضع النحو العربي ، في صورته المركّبة سواء من حيث عوامله ومعمولاته الظاهرة والمقدرة أو من حيث ما يجري فيه من شواهد ومن علل و أقيسة ...))(7)، وهذا النص جاء تاليا لكلامه على أبي اسحاق الذي يُشعر بأن نشوء المدرسة البصرية بدأت أبي اسحاق واكتمال النحو العربي انتهى على يد الخليل بن أحمد ، ولو عُكست الصورة فقلنا إن نشأة النحو العربي بدأت بأبي اسحاق من غير أن نسم ذلك النحو بسمة المدرسية لكانت العبارة أدق ، وإلا فكيف نُعدّ أبا اسحاق رائدا أو استاذا للمدرسة البصرية والنحو لم يكتمل إلا على يدي الخليل ؟ ، إذ لايعقل أن تظهر المدرسة البصرية إلى الوجود قبل اكتمال النحو ونضجه ، فالمدرسية ليست سابقة على اكتمال النظرية النحوية ، بل هي تالية له .أما د. خديجة الحديثي فلم تصرّح بنسبة تأسيس هذه المدرسة إلى أحد وهذا يظهر في تضاعيف البحوث التي قدّمتها عندما ترجمت لأوائل النحاة ، أما الخليل فقد صرّحت بأنه مَنْ اكتمل النحو العربي على يديه ، إذ قالت : ((تمت على يد الخليل دراسة النحو العربي وبلغت مرحلة النضج والكمال على يديه ...))(8) .

وعليه فإننا لانجد في الكتابين السابقين . عدا الإشارة المتقدمة إلى ابي اسحاق الحضرمي . مايصرّح بنسبة تأسيس هذه المدرسة النحوية إلى الخليل بن أحمد أو تلميذه سيبويه ، وهو أمر لافت للنظر وقد نبّهت عليه الباحثة حنان قادر أمين إذ قالت : ((إن أغلب كتب المدارس ذكرت مؤسسي مدارس النحو ،

كلا بحسب المدرسة التي عرض لها ... فيما عدا مؤسس مدرسة البصرة النحوية ، إذ لا يختلف في ذلك ، فالخليل هو الشيخ الأول وسيبويه من بعده))(9). فالباحثة إذن عدّت السكوت عن التصريح بمؤسس المدرسة البصرية تصريحا بأن الخليل هو الأول وسيبويه هو الثاني .

والواقع أن هذا السكوت عن مؤسس المدرسة البصرية إنما جاء لإيمان الباحثين بأن نشأة النحو العربي اقترنت زمانيا ومكانيا بنشأة النحو البصري أو المدرسة البصرية ، وكأن ظهور بوادر علم النحو وأولياته كان بحدّ ذاته ظهورا لبوادر المدرسة البصرية ، فإذا كانت نشأة النحو واكتماله قد انتهت إلى الخليل بن أحمد ، فتأسيس المدرسة البصرية ستنتهي إليه في ضوء هذا المفهوم . وهذا أمر فيه نظر ؛ لأننا لو أردنا تطبيق مفهوم لفظة (مدرسة) . المتقدم ذكره في البحث . على أوليات النحو العربي بدءا بأبي الأسود الدؤلي وانتهاءا بسيبويه ، لحدثت فجوة بين مفهوم اللفظة ومدى انطباقها على الموروث النحوي الذي أُثر عن أوائل النحاة؛ لأن النحو العربي في أولياته لم يكن في حقيقته سوى مواقف أو حوادث لغوية . إن ثبتت صحة وقوعها أو لم تثبت . جاءت على الفطرة والسليقة اللغوية ، ولم يكن أبو لأسود أو غيره من المتقدمين يتقصّدها تقصّدا ، بل إن فكرة تأسيس مدرسة ذات بعد منهجي فكري لم تكن تخطر في بالهم ، كيف والنحو مازال في أول خطاه ولم تقم له قائمة؟ ، وبذلك لانستطيع . في ضوء مفهوم المدرسة المتقدم . أن نعدّ أبا الأسود أو ابا اسحاق الحضرمي مؤسسي مدرسة البصرة النحوية ، بل منهما بدأ النحو العربي يخطو خطاه الأولى نحو النضج والاستواء والاكتمال على يدي الخليل وتلميذه سيبويه .

أما الخليل بن أحمد ، فإن أحد الباحثين وهو أستاذنا الفاضل د. محمد حسين آل ياسين يصرّح في بحث نشره في مجلة المورد عنوانه (في المدارس النحوية) بأن الخليل ليس مؤسس المدرسة البصرية وإنما هو سيبويه ، فيقول : ((الخليل الذي هو لابصري ولا كوفي بالمعنى الدقيق لهذين الاصطلاحين من الناحية العلمية المنهجية ، لاكما عدّه القدماء في مصنّفاتهم وبعضٌ من المحدثين أنه رأس مدرسة البصرة ، وليس مايدفعهم إلى ذلك إلا كونه بصري المدينة فيها عاش وتربّى ، وهذا لايكفي لعدّه بصري المدرسة ؛ لأن المدرسة وإن اكتسبت اسمها من المكان الأول الذي نشأت فيه إلا إنها تتخذ بعد ذلك صفات وخصائص علمية لا علاقة لها بالمكان ، فالخليل على هذا ليس بصري المذهب ...))(10).

والواقع أن عبارات الأستاذ الفاضل كان فيها الشيء الكثير من الدقة ، إذ لايكفي انتماء الخليل إلى البصرة مكانا لعدّه مؤسسا لمدرستها النحوية ، ولاسيما أن الاستاذ الفاضل نبّه على أن تغييرا أو تغايرا حدث في منهج النحاة بعد الخليل عمّا عُرف لدى الخليل من سمات منهجية ، ولكن هذا التغاير لم يبدأ بسيبويه . كما قال بذلك الأستاذ الفاضل . ، إذ صرّح بأن منهج سيبويه اختلف عن منهج استاذه الخليل (11) ، ولكننا في هذا البحث سنحاول اثبات أن هذا التغاير أو الاختلاف في المنهج لم يبدأ بسيبويه بل بدأ بعده، إذ كيف يحدث هذا التغاير ونحن لم نعهد نحوا للخليل إلا ما نقله عنه سيبويه في كتابه، بل يذهب بعض الباحثين إلى أبعد من ذلك ليعدّ الكتاب برمته للخليل بن أحمد وليس لسيبويه فضل فيه إلا

النقل والتبويب، ومنهم الدكتور مهدي المخزومي في بحث له حمل عنوان (الكتاب) ،ففي بحثه هذا يصرّح بنسبة الكتاب برّمته الى الخليل(12) ، وهذا التصريح مع مافيه من نظر ونقاش إلا أنه يثبت أن منهج سيبويه لم يغاير منهج استاذه ، وإذا اثبتنا ذلك .كما سيأتي . ، فإننا نقول في سيبويه ما قاله استاذنا آل ياسين في الخليل بأنه بصري المدينة فيها عاش وتربّى ، ولكنه لاينتمي إلى الفكر النحوي الذي نقرأ عنه في كتب الدارسين .

وعليه لايمكن إنكار أن تغايرا منهجيا على مستوى الفكر النحوي حدث في النحو البصري ، وهذا ما سنحاول اثباته . إن شاء الله . في المبحث التالي .

ثانيا . المعايير الفكرية لمدرسة البصرة النحوية وانعاكساتها في فكر مَنْ عُدّ رائدا لهذه المدرسة:

لقد عُرف النحو البصري بسمات منهجية ميّزته عن النحو الكوفي، ورسمت ملامحه المستقلة عن غيره من المدارس النحوية، وأبرز هذه السمات نستشفها من منهج البصريين في التعامل مع أصول النحو العربي ؛ لأن الاختلاف بين النحاة لم يحصل في المادة النحوية؛لأن النحو واحد واللغة واحدة، وإنما حصل في طريقة تناول المادة والأسس الفكرية التي عولجت في ضوئها هذه المادة ، مما قاد إلى خلق ما عرف بالخلاف النحوي، ولعل الموقف من أصول النحو يأتي في مقدمة هذه الأسس ،فالبصري له طريقة تختلف عن الكوفي في تناول هذه الأسس ؛ ولهذا نحكم ببصرية فلان أو كوفيته في ضوء موقفه من هذه الأصول . وقد اعتنى الباحثون اعتناءا كبيرا بهذا الأمر فظهرت إلى الوجود مصنفات عديدة أخذت على عاتقها مهمة تحديد ملامح المنهج البصري في النظرة إلى الأصول واختلافهم مع غيرهم من النحويين ، كوفيين كانوا أو غيرهم ، وليس البحث معنيا بعرض كل ما كتب حول هذا الموضوع ، ولكن ما يهمنا . هنا . هو الإشارة إلى أبرز ما لحظه الباحثون في المنهج البصري.

إن القاريء لهذه المصنفات يرى أن معظمها قد اتفق على أن البصريين كانوا يعطون للقياس المساحة الكبرى على حساب السماع ، وأنهم كانوا نتيجة لتقديس أقيستهم تلك يخضعون لها الكلام الفصيح في كل صوره ، ومن ذلك نصوص الذكر الحكيم ، فما وافق القياس منها قبلوه وما لم يوافقه اخضعوه للتأويل والتقدير لكي لاتغادر الآية الكريمة ساحة القياس المقدّس ، ولسنا هنا بصدد تتبّع ما كتب في ذلك ولكن البحث يكتفي ببعض النصوص التي تفصح عمّا رسمه الباحثون من صورة للنحو البصري في منهجهم في التعامل مع أصول النحو، يقول الدكتور عبد الجبار النايلة : ((استشهاد البصريين بالقرآن الكريم لايختلف عن استشهادهم بسائر النصوص الأخرى ، فمع اعترافهم التام بأن القرآن مصدر مهم للشواهد الصحيحة والفصيحة ورغبتهم القوية في الاستشهاد بآياته البيّنات ، اعتزوا بأقيستهم وأصولهم وقدّموها على كلِ نص وهذا جعلهم لايستشهدون بآية إلا إذا تأيدت بالسماع شعرا كان أو كان نثرا))(13)، أما الدكتور عبد العال سالم مكرم فقد صرّح بأن القياس هو الصبغة العامة للنحو البصري فقال : ((الصبغة

العامة للمذهب البصري أنه مذهب حاول أن يدخل مسائل النحو في (بودقة) المنطق بأقيسته وتعليلاته وفروضه وتأويلاته قبل الرجوع إلى كلام الله وكلام العرب لعرض هذه المسائل في ضوئها ، ومن هنا كان أهم مايرتكز عليه المذهب البصري هو القياس))(14).

فما نستشفّه من هذين النصين أن البصريين اعتزوا بأقيستهم وحاولوا إخضاع النصوص الفصيحة لها . بما في ذلك نصوص القرآن الكريم وقراءاته . ، واتسمت هذه الأقيسة بأنها منطقية ،حاولت جرّ مسائل النحو إلى ساحة المنطق والفلسفة مما قادهم إلى التأويل والتعليل والتقدير.

ولابدّ من التنبيه في هذا الموضع على أن البحث لم يتقصّ جميع النصوص ؛ لكثرتها وعدم سماح مساحة البحث المحدودة بعرضها ، ولكن هذه السمات أصبحت من المسلّمات العلمية التي أصبحنا نقراها في كتب أصول النحو ،وكأن النحو البصري أصبح رديفا للقياس لتوسّعهم فيه مقابل توسّع الكوفيين في السماع والرواية، حتى قيل إن البصرة مدرسة قياس والكوفة مدرسة رواية وسماع.

والنظر في هذه السمات يجعلنا نتساءل ، من أين استمد الباحثون هذه السمات ؟، هل استمدوه من اطلاعهم على فكر نحاة الرعيل الأول بدءا بأبي الأسود وصولا إلى أبي اسحق الحضرمي ؟ ، أم أنهم استمدوه من نحو الخليل وسيبويه ؟ ، أم من نحو من جاء بعدهما ؟، والإجابة عن هذه السؤالات ترسم لنا الطريق إلى التوصل إلى أمرين مهمين ، هما :

الأول : أن النحو في البصرة نما وترعرع حتى استوى ناضجا كاملا في كتاب سيبويه وهو في هذه المرحلة من عمره كان وصفيا استقرائيا قوامه كلام الله وكلام خلقه من العرب الفصحاء، ولكنه انحرف فيما بعد عن هذه الطريق ليسلك مسالك المعيارية المحضة وما اجتلبته من مناهج في التفكير النحوي .

الثاني : أن هذه السمات لايمكن أن تكون مستمدة من فكر النحاة الاوائل ؛ لأن الأدلة النقلية تردّ ذلك ، فما أُثر عن أبي الأسود وصولا إلى أبي اسحق الحضرمي لايعدو .كما تقدّم . أن يكون ملاحظ أو مواقف لغوية احتُكم فيها إلى الفطرة الفصيحة والسليقة النقية ، من غير الركون إلى قياس منطقي أو تعليل فلسفي ، ونظرة في هذه المرويات تثبت ذلك .

أما الخليل فقد صرّح أستاذنا الفاضل د. محمد حسين آل ياسين بأن نحوه . أي الخليل .كان بعيدا عن القياس المنطقي ، فقال : ((ولانجد في آرائه النحوية مايؤيد انتماءه إلى مدرسة البصرة، فهو بالوقت الذي يلجأ إلى القياس أحيانا نراه يعتد اعتدادا كبيرا بالشواهد التي سمعها من أفواه العرب ويبني على مسموعاته قواعده ... فالخليل إذن جامع خصائص .ما سُمّي بعده . المدرستين البصرية والكوفية وإن لم تكن هذه الخصائص من الوضوح بالشكل الذي انشطر وتوضح عند تلميذيه سيبويه والكسائي ...))(15)، فالأستاذ الفاضل لم ينف ريادة الخليل لمدرسة البصرة فحسب ، بل نفى انتماءه إليها ؛ لأنه لاحظ اختلافا في منهج الخليل عمّا عُرف من النحو البصري ، وهو في مقابل ذلك أثبت الريادة لسيبويه ، ليصل إلى القول بأن اختلاف منهج البصريين النحوي بدأ من كتاب سيبويه ، وكأن التأسيس لهذه المدرسة انطلق

منه ، وكأن السمات المتقدم ذكرها استمدت من الكتاب ، فقال : ((... حيث اهتم سيبويه بعده بجانب القياس ووسّعه في (كتابه) بشكل أصبح سمة بارزة في نحوه ...نرى أن الجو العلمي في البصرة ودراسات الفلسفة والمنطق التي كان يعيش سيبويه في بحرها وربما خاضها بنفسه ، جعلت من عقل سيبويه عقلا مفلسفا ممنطقا ميالا إلى التعليل والتقدير والقياس وتقعيد القواعد على أوسع وأشهر الشواهد وترك مادون ذلك ...))(16)، وبعد ذلك يقرّ الأستاذ الفاضل بريادة سيبويه للمدرسة البصرية ، فيقول : ((ومهما يكن من أمر فنحن اعتمادا على ما وصلنا إليه وما وصل إلينا نؤيد الرأي القائل أن سيبويه رأس البصريين))(17) ، ولكن إلى أي مدى يتسم هذا الكلام بالدقة ؟ ،و هل كان سيبويه معتدا بالقياس فعلا ؟، وهل كانت أقيسته متأثرة بعلوم المنطق والفلسفة ؟، وإن ثبت أنه رأس المدرسة البصرية ثبتت له السمات المنهجية الأخرى ، لذا نتساءل مرة أخرى : هل كان يُخضع القرآن لأقيسته ؟كما قال ذلك الدكتور أحمد مكي الأنصاري في بحثه الموسوم (سيبويه في الميزان)(18) ؟ ، ألم يكن للسماع نصيب وافر في الكتاب ؟ ، وهل كان يخطئ القراءات القرآنية وينقد القرّاء ؟ ، والسؤال الأهم : هل اختلف منهج سيبويه في بحثه النحوي عن منهج الخليل ؟ ، أم كان منهجه امتدادا لمنهج أستاذه ؟ .

فإن ثبت أن الخليل اعتد بالسماع ولجأ إلى القياس أحيانا ، وأنه اعتمد الشواهد المسموعة في بناء قواعده ، فما الذي فعله سيبويه في كتابه ؟ ، فهو بلا شك لم يخرج على هذه الدائرة المنهجية التي اختطها لنفسه مستلهما إياها من فكر أستاذه الخليل ، وعلى ذلك شواهد وإثباتات من الكتاب نفسه ، فقراءة أولى للكتاب تجعلنا نقف كثيرا عند عبارات مثل (سمعت العرب) و (سمعنا من العرب) ، و (هذا كلام العرب) ، وغيرها الكثير مما يؤكد أن للسماع حصة كبرى في الكتاب ، بل نكاد لانبعد إذا قلنا إن الكتاب برمّته مبنيٌ على السماع الفصيح ، أما القياس فيأتي في مرحلة تالية للسماع ، وهو أمر طبيعي منهجيا ؛ لأن سيبويه إنما وضع كتابه ليؤصّل لنظرية نحوية عربية لم يُسبق إليها بسابق ، إذ لم يصل إلينا نحو مدوّن قبله ؛ فكان القياس طريقه لوضع قوانين العربية ورسم أصول فصاحتها ، وهذا القياس نبع من روح السماع واستُلهم منه ، فهو لم يكن يؤصل لنحو بصري ؛ لذلك فإن ملامح المدرسية لايمكن تجسيدها في كتاب سيبويه ، ولعل في موقفه من القرآن الكريم وقراءاته خير دليل على افتراق منهجه عمّا عُرف من منهج البصريين من جهة ، وأن منهجه هذا كان امتدادا لمنهج أستاذه الخليل ، فالدكتورة خديجة الحديثي أثبتت أن سيبويه كان يعتني كثيرا بالشاهد القرآني ويحترمه ويقدّسه(19) ، كما أنه كان يقيم أبوابا نحوية كاملة على الشاهد القرآني وحده (20) ، ولم يخطئ قراءة قرآنية أو ينقدها ، إذ كيف يناقض نفسه وهو القائل : ((القراءة لاتخالف لأنها سنّة متّبعة)(21) ، وإن واجهته قراءة شاذة أو مخالفة للقياس لم يردها ولم ينقدها مباشرة ، بل ينقد اللغة التي جاءت عليها (22) ، وهو نقد علمي ينطلق من وجهة نظر لغوية بحتة ، كأن يقول : هي لغة ضعيفة أو قليلة(23) ، فلغة التخاطب مع القراءة كانت هادئة فيها من

الاحترام والعلمية مايؤكد ادراك سيبويه لقيمتها ، أما أقيسته فإن وصفت بالمنطقية فلا نقصد بها المنطق الفلسفي أو الكلامي أو العقلي بل المنطق اللغوي ، فهي تنطلق من منطق اللغة فهي منطقية لغويا .

ولسنا هنا بصدد الدفاع عن سيبويه وإنما نريد اثبات حقيقة علمية يثبتها الكتاب نفسه ، وهو أن منهج سيبويه النحوي لم يخرج عن منهج أستاذه ، واذا نفيت الريادة عن الخليل .كما تقدم . وإذا اثبتنا تشابه منهجي الخليل وسيبويه ، فإن الريادة تُنفى عن سيبويه أيضا ، ويصبح من الظلم أن نضع كتاب سيبويه في دائرة الكلام على المدرسة البصرية ذات الفكر والمنهج الذي تقدّم الكلام عليه ، فسمات هذا المنهج لانلمحها في الكتاب ، إذ انفرد سيبويه بمنهج لم يدانه فيه أحد من النحاة ممن جاء بعده، وفي الوقت ذاته لاننكر بأن النحو البصري شهد تغايرا أو اختلافا في طريقة معالجة المادة النحوية على مستوى منهجي البحث والتأليف والموقف من الأصول والأقيسة والعلل ، ولكن هذا التغاير حدث بعد كتاب سيبويه ، ولعل نظرة موازنة بينه وبين مقتضب المبرّد تثبت ذلك ، فلو وضعنا الكتابين في الميزان لوجدنا أنهما يسيران على وفق خطين منهجيين مختلفين ،فالمبرّد اخذ المادة النحوية واللغوية من سيبويه ولكنه عرضها وعالجها بطريقته هو وفكره هو، وفي ضوء ثقافته وخزينه اللغوي ، فضلا عن أن دافعا آخر كان قد وجد آنذاك وهي المنافسة مع الطرف الآخر ممثلا بالكوفيين بزعامة ثعلب، فإن كان كتاب سيبويه قد وضع لأجل إرساء قوانين العربية الفصيحة ، فإن المبرّد قدّم فكره النحوي في وقت كانت الغلبة فيه للكوفيين في بغداد، وأراد توجيه الأنظار إليه ولفت الإنتباه نحوه ؛ لذلك شهد كتابه او نحوه اختلافا في المنهج ، وهذا الأمر نستشفه مما ذكره الشيخ عبد الخالق عضيمة عن منهج المبرّد النحوي، ففي موقفه من القياس وردّه الكثير من الروايات لأنها خالفت اقيسته يقول : ((كانت للمبرّد رغبة ملحّة في أن تجري المسائل على نظام مستقيم ، وقياس مطرّد ، فدفعه ذلك إلى أن ينكر بعض الروايات التي تخالف القياس العام ، واستكثر من ذلك ...))(24) ، وقال أيضا : ((ونثبت هنا أن صاحبنا المبرّد كان قياسا أعمل الاقتياس في مسائل كثيرة))(25) ، وكان يكثر من التأويل حتى أن عضيمة لم يحص المواطن التي أوّل فيها الكلام على وجوه لكثرتها بل نراه يحصي مالم يخصعه للتأويل لأنها أقل بكثير من مواطن التأويل(26) .

أما موقف المبرّد من القراءات القرآنية فإن الشيخ عضيمة يقرّ بأن المبرّد كان يخطىء القراءات ، ولكنه يصرّح بأن التخطئة موروثة من نحاة البصرة المتقدّمين ، فيقول في ذلك: ((هذه الحملة الآثمة على القرّاء وردّ قراءاتهم استفتح بابها ، وحمل لوائها نحاة البصرة المتقدمون ... وقد كان للمازني أستاذ المبرّد نصيب موفور في قيادة هذه الحملة الآثمة فقد طاب له أن يختم كتابه التصريف بالطعن على القرّاء والسخرية منهم ... وقد اقتدى تلميذه به ، ونقل في مقتضبه ما أثبته المازني في تصريفه من الطعن على خارجة من رواة نافع))(27)، وهذا النص يجعلنا نتوقف عند أمور عدة ، منها أن عبارة (نحاة البصرة المتقدمون غير دقيقة) ، فمن هم النحاة المتقدمون الذين خطّؤوا قراءة قرآنية ؟ ، أ هو أبو الأسود أم الخليل أم سيبويه؟ فلم ينقل عن هؤلاء ايّة تخطئة أو ردّ ، وعليه لايمكن القول بأن التخطئة منهج موروث

من المتقدمين لأن النقولات لاتؤيد صحة هذا القول ، ومن جهة أخرى صرّح عضيمة بأن المبرّد تأثر باستاذه المازني وموقفه من القراءات كان نتيجة لهذا التأثر ، ولم يشر إلى سيبويه في هذا التصريح ، وهذا أمر مبرر ؛ لأن سيبويه لم يخطىء قراة ، ولأن المبرّد كان تلميذا للمازني لا لسيبويه ، وهنا تجدر لإشارة إلى أمر في غاية الأهمية وهو أن مدة زمنية طويلة تفصل بين كتاب سيبويه ومقتضب المبرّد تقدّر بمئة عام ، إذ وفاة سيبويه سنة (180) للهجرة ووفاة المبرّد سنة (285) للهجرة ، ووهو وقت طويل بين الكتابين والفكرين وكاف ليُحدث تغييرا في طريقة التفكير النحوي ، ولاسيّما أن هذه المدة شهدت غيابا للنتاج النحوي الصادر من البصرة ، فالمبرّد لم يكن قريب عهد بسيبويه كما كان سيبويه قريبا من الخليل ؛ لذلك تشابه منهجا الخليل وسيبويه إن لم يكن منهجا واحدا ، واختلف منهج المبرّد عن منهج سيبويه وإن استمد مادته النحوية منه ، فالكتاب كان منبعا لنحاة العربية عموما ، بصريين وكوفيين ، انطلقوا منه وأسسوا منهاجهم ونتاجاتهم العلمية .

وعليه فإن السمات المنهجية التي نقرؤها في كتب الباحثين عن النحو البصري تشابه إلى حدّ كبير السمات المنهجية للمبرّد من تشدد في القياس واخضاع النصوص الفصيحة له بما في ذلك القراءات القرآنية ، وهذا يقود إلى القول بأن منهج المبرّد حقق امتدادا في تلامذته الذين تأثروا به ، حتى أصبحت هذه السمات ملازمة للنحو البصري ، ولكن يجب تحرّي الدقة عندما نسم النحو البصري بهذه السمات ، فهي لاتنطبق على فكر الأوائل انتهاءا بسيبويه، وهذا يعني أن النحو البصري شهد اختلافا فكريا أو قل تطورا فكريا ، ففي الحقبة الأولى ارتكز النحو إلى اسس غير التي عرفناها عند المبرّد ومن تلاه من نحاة البصرة ، وهذا أمر أملته الظروف المحيطة بكلا الفريقين ، فالاوائل وصولا إلى سيبويه كان همهم تأسيس نحو عربي غايته عصمة اللسان من اللحن ووضع القوانين النحوية لحماية لغة القرآن من الخطأ والزلل ، ولم تكن غايتهم تأسيس نحو مدرسي أو مدرسة نحوية ؛ لأن فكرة الانضواء تحت مدرسة ما أوجدتها في حقيقة الأمر المنافسة العلمية بين النحاة ، ومحاولة كل فريق أثبات وجوده العلمي على حساب الآخر ، وهذه الأجواء شهدها المبرّد عندما قدم إلى بغداد .

وعليه يمكن القول إن انطلاق المدرسة البصرية بفكرها المعهود في كتب الباحثين يبدأ منذ رحيل المبرّد إلى بغداد ، حيث كانت الساحة هناك كوفية ، إذ السائدهو النحو الكوفي بزعامة ثعلب ، ولكن المبرّد استطاع استمالة تلامذة ثعلب بحذقه وعلمه ، فجعلهم ينبذون الفكر الكوفي ليسيروا على خطى استاذهم الجديد بفكره الجديد الذي بُهروا به(28) ، لترتسم بذلك ملامح فكر نحوي جديد لم تألفه مجالس العلم في بغداد ، وهو النحو البصري ، إذ لقي مذهب المبرّد اعجاب من كان كوفيا في أول أمره ، مثل ابن السراج والزجاج والزجاجي ، ليتحقق بذلك امتداد المنهج الذي ذكره د. أحمد مختار عمر في تعريفه لمصطلح المدرسة ، فضلا عن وجود الرائد وهو المبرّد نفسه وامتداد منهجه لدى تلامذته من بعده ، فالمبرّد وضع أسس المدرسية على وفق هذا المفهوم ، وقد انطلق من كتاب سيبويه ، ولكنه لم يسر على

خطاه المنهجية ، فسيبويه متفرّد في منهجه مستقل فيه ، وهذا لايتقاطع مطلقا مع القول بأن النحو عموما : بصريه وكوفييه قد انطلق من الكتاب ، وهنا ينبغي التفريق بين أمرين :

الأول . أن مسألة انطلاق النحو من البصرة ، وأن الكتاب مبتدأ النحوين ، أمر مفروغ منه .

الثاني . ينبغي التفريق بين نسبة النحو إلى المكان وبين نسبته إلى فكر منهجي واحد وممتدد على مدى قرون الزمان وله صداه عند المتأخرين من النحاة ، فنحو سيبويه ينتمي إلى البصرة وهو انتماء مكاني لا فكري في ضوء الملامح الفكرية التي رسمها الدارسون للنحو البصري ، فهي صورة للنحو الذي جاء بعد سيبويه ولكن الدارسين عمموا احكامهم فجعلوها شاملة للنحو البصري منذ نشأته وصولا إلى آخر نحوي انتسب إلى مدرسة البصرة .

فالنحو وُلد في البصرة ونشأ وترعرع على أيدي علمائها وقُدم كاملا في كتاب سيبويه ، ولكنه حتى عهد سيبويه لم يصطبغ بصبغة المدرسية ؛ لأن هذا العهد كان عهد التأسيس والتثبيت لأركانه ، وعندما نصل إلى زمان المبرّد يكون النحو قد تجاوز عهد التأسيس ليصل إلى مرحلة التأليف والاجتهاد الذي خلقته المنافسة ولاسيّما أن طرفا منافسا لايقل قوة عن النحو البصري كان هو السائد في الساحة العلمية ، وهو النحو الكوفي ، فأصبح رائد كل فريق يسابق منافسيه في التفوق واظهار الفصاحة والتمكن من اللغة واكتساب التلاميذ .

ومانريد اثباته هنا ، هو أن التأريخ للمدارس النحوية يبدأ بعد كتاب سيبويه مع ذهاب المبرّد إلى بغداد ، وهذا لاينفي أن المبرّد انطلق من سيبويه آخذا منه مادته وقواعده ، ولكنه اختلف عنه في المنهج المعتمد في التعامل مع الأصول وتقنين القواعد .

الهوامش

(1) أبو زكريا الفرّاء ومذهبه في دراسة النحو واللغة : 352.
(2) البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لقضية التأثير والتأثر : 90 .
(3) ينظر : المصدر نفسه 90 .
(4) المدرسة النحوية في مصر والشام في القرنين السابع والثامن من الهجرة : 7 .
(5) المدارس النحوية(د.شوقي) : 22 .
(6) ينظر : المصدر نفسه 23 - 26 .
(7) المصدر نفسه : 57 .
(8) المدارس النحوية (د. خديجة الحديثي) : 66 .
(9) كتب المدارس النحوية دراسة وتحليل ، ماجستير : 193، وينظر : مدرسة البصرة النحوية نشأتها وتطورها، عبدالرحمن السيد : 152 ومابعدها ، و دروس في المذاهب النحوية ، عبده الراجحي : 249.

(10) في المدارس النحوية (بحث) : 67 .
(11) ينظر: المصدر نفسه 67 - 68 .
(12) ينظر : الكتاب (بحث) 32 .
(13) الشواهد والاستشهاد في النحو : 203 .
(14) القرآن الكريم و أثره الدراسات النحوية : 92 .
(15) في المدارس النحوية (بحث) : 67 .
(16) المصدر نفسه : 68 .
(17) المصدر نفسه : 68 .
(18) ينظر : سيبويه في الميزان (بحث) 104- 105.
(19) ينظر : الشاهد و أصول النحو في كتاب سيبويه 32 ، و 319 ، وبنظر : منهج سيبويه في الاستشهاد بالقرآن الكريم وتوجيه قراءاته ومآخذ بعض المحدثين عليه ، سليمان يوسف خاطر ، 230 وما بعدها .
(20) ينظر: الشواهد القرآنية في كتاب سيبويه ، محمد ابراهيم مصطفى ، 364.
(21) الكتاب : 1/ 148 .
(22) ينظر : الشاهد و أصول النحو في كتاب سيبويه ، 55 .
(23) ينظر : الكتاب 1/ 28- 29 ,
(24) المقتضب : 1/ 108 (مقدمة التحقيق) .
(25) أبو العباس المبرّد و أثره في علوم العربية : 55 .
(26) ينظر : المقتضب 1/ 105 وما بعدها (مقدمة التحقيق) .
(27) المصدر نفسه : 111/1 (مقدمة التحقيق) .
(28) ينظر : المدارس النحوية (د. خديجة الحديثي)، 95 وما بعدها .

مصادر البحث :

1- أبو زكريا الفرّاء مذهبه في دراسة النحو واللغة ، د. أحمد مكي الأنصاري ، مطبوعات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الجامعية ، القاهرة ، 1964م.
2- أبو العباس المبرّد و أثره في علوم العربية ، محمد عبد الخالق عضيمة ، مكتبة الرشد ، الرياض ، ط 1، 1405هـ .
3- البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لقضية التأثير والتأثر ، د.أحمد مختار عمر ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط3، 1978م.
4- دروس في المذاهب النحوية ، د. عبده الراجحي ، دار المعرفة الجامعية ، اسكندرية ، مصر، 1988.
5- سيبويه في الميزان (بحث)، د. أحمد مكي الأنصاري، مجلة مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، ج 34 ، 1974م.
6- الشاهد و أصول النحو في كتاب سيبويه ،د. خديجة الحديثي ،مطبوعات جامعة الكويت ، 1974م.
7- الشواهد القرآنية في كتاب سيبويه ، محمد ابراهيم مصطفى عبادة ، رسالة دكتوراه،كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، 1977م.
8- الشواهد والاستشهاد في النحو ، عبد الجبار النايلة ، مطبعة الزهراء ، بغداد ،ط1976،1م.
9- في المدارس النحوية (بحث) ، د.محمد حسين آل ياسين ، مجلة المورد ، مجـ 3، ع 4، 1974م.
10- القرآن الكريم و أثره في الدراسات النحوية ، د.عبد العال سالم مكرم ،مؤسسة علي الجرّاح الصباح، ط2، 1978م.
11- الكتاب ،سيبويه، تحقيق وشرح : عبد السلام هارون ،مكتبة الخانجي ،القاهرة ،ط3، 1988م.
12- الكتاب (بحث)،د.مهدي المخزومي ،مجلة كلية الآداب والعلوم ،جامعة بغداد،ع 2، 1957م.
13- كتب المدارس النحوية (دراسة وتحليل) ، حنان قادر أمين ،رسالة ماجستير، كلية التربية ، جامعة ديالى ، 2003م.
14- المدارس النحوية ،د.خديجة الحديثي ،دار الأمل، الأردن،ط3، 2001م.
15- المدارس النحوية ،د. شوقي ضيف ، دار المعارف ،ط7، د.ت .
16- مدرسة البصرة النحوية نشأتها وتطورها ، د.عبد الرحمن السيد ،دار المعارف ،مصر، ط1، 1968.
17- المدرسة النحوية في مصر والشام في القرنين السابع والثامن من الهجرة ، د.عبد العال سالم مكرم ، دار الشروق ، ط1، 1980م.
18- المقتضب ، أبو العباس المبرّد ، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة ، عالم الكتب ، بيروت ، د.ت .
19- منهج سيبويه في الاستشهاد بالقرآن الكريم وتوجيه قراءاته ومآخذ بعض المحدثين عليه (دراسة نقدية تحليلية نحوية وصرفية)، د.سليمان يوسف خاطر، مكتبة الرشد، الرياض ،ط1 ، 2008م.